فلسطين

ذكرى النكبة وتذكّرُها

استعادة الأحداث المصيرية المرتبطة بالأرض

تستدعي ذِكرى النكبة برنامجَ تذكُّر واستعادة يسعى إلى تعميق موقع فلسطين في الوعي الوطني والعربي والإسلامي، لكي تبقى الذاكرة وسيلةَ نضال تلعب دورها الأهم في ربط الأرض بأهلها وبالتاريخ، خاصة بعد تطاول الهجران و تكاثر الأعداء وانسداد الأفق

ناصر الرباط

قبل اثنين وسبعين عاماً بدأت نكبة الشعب الفلسطيني؛ ففي عام 1948 خسر أبناؤه جزءاً كبيراً من وطنهم، ثُمَّ بعد عشرين سنةً خسروا الجزء المتبقّي من وطنهم التاريخي، وبعد ثلاثين سنة أُخرى خسروا إمكانية إقامة «ميني-دولة» مبتسرة ومقصوصة الحدود عن حدود 1967 على بعضٍ من ترابهم الوطني كما يبدو اليوم. ولكنهم، مع كلّ هذه الخسائر المتتالية، لم يفقدوا قط انتماءهم لفكرة فلسطين كأرض وكوطن: فكرة ما زالت تعيش في قلوبهم وتسكن أحلامهم، وصيرورة ما زالت ترنو إلى أمل التحقّق.

فالفلسطينيون أثبتوا، من خلال جلجلتهم المتطاولة والتراجيدية، أنهم شعب حيٌّ تمكّن من الحفاظ على ذاكرته الجمعية عبر الزمن وخلال الهجرة والتشرّد ونقلها لأبنائه وبناته، حتى أولئك الذين وُلدوا وعاشوا وماتوا خارج فلسطين.

هذه الذاكرة ما زالت تتّقد اليوم، ليس فقط كأداة زهو بماضٍ أفضل ومجد بعيد (وهو كذلك)، أو كبديل ملفّق لواقع صعب (وهو كذلك أيضاً)، وإنما كجذرٍ فاعل في التكوين الفردي والجماعي لكلّ الفلسطينيين، وكمُعطىً وجودي في مساراتهم الحالية والمستقبلية يلمّ شملهم ويمنحهم شعوراً بالانتماء والتفاعل مع بعضهم البعض ومع العالم الواسع حولهم، مع انتفاء المعطيات الأخرى من أرض ودولةٍ وحدود.

في وضع كهذا، تتحوّل الذاكرةُ إلى بؤرة تتجمّع فيها كلُّ التعبيرات الثقافية للهوية من أغانٍ ورقص وملاحم وقصص وأزياء وفنّ وعمارة ومطبخ ومأكولات وغيرها، ربّما لتعوّض الناس عن التهديد الوجودي الحقيقي الذي ما فتئوا يواجهونه منذ أكثر من قرن، ولتشحن قدرتهم على مواجهة التحدّي الهوياتي والمحافظة على حسّ الانتماء إلى الذات والوطن والأرض المفقودة.

ولكن الذاكرة الوطنية كالهوية ليست حقّاً طبيعياً ولا إرثاً كياناً أزلياً ثابتاً في كل لحظة ومنفصلاً عن واقع أصحابه من أبناء وبنات الوطن. بل هي، كالهوية أيضاً، منتج تاريخي ديناميكي، مرتبط بشروط تاريخية وثقافية واجتماعية علائقية مع من ينتمي إليها، تتحرّر وتنتعش بتحرُّر وانتعاش شعبها، وتتقوقع وتتآكل بتقوقع وتخلُّف شعبها أو باستسلامه لواقع أليم مفروض عليه فرضاً.

بمعنى آخر، الذاكرة، مثلها مثل أيّ عامل اجتماعي آخر، موجودةٌ ومصنوعة في الآن نفسه. وهي بالتالي خاضعةٌ للإرادة والتخطيط الإنسانيَّين، على الأقل جزئياً. وهي في ذلك كبذرة القمح، فيها حياتها، ولكنها لا تنمو وحيدةً من دون مساعدة، بل تذوي وتموت إذا أُهملت، وتينع وتثمر إذا لاقت الرعاية والاهتمام. وعليه، في ذكرى النكبة هذه، أود أن أقترح - كمعمار ومؤرّخ - برنامج تذكُّر واستعادة يسعى إلى تعميق موقع فلسطين في الوعي الوطني الفلسطيني والعربي والإسلامي لكي تبقى الذاكرة وسيلةَ نضال تلعب دورها الأهم في ربط الأرض بالقوم وبالتاريخ، خاصة بعد تطاول الهجران وتكاثر الأعداء وانسداد أفق كلُّ الحلول السياسية المطروحة على الساحة اليوم.

ينبغي أن تلعب العمارة والفن دوراً في صياغة الذاكرة

رغم الخسائر، لم يخسر شعبها انتماءه إلى فكرة فلسطين

ما أودّ التركيز عليه هو استعادة ذكرى الأحداث المصيرية المرتبطة بالأرض وترسيخها تصويرياً أو معمارياً وتفعيلها كمحفّزات للانتماء ومرتكزات للشعور الجماعي، خاصّةً أنَّ مواقع هذه الأحداث مستحيلةُ الوصول على غالبية الفلسطينيّين والعرب. ولذا فأنا أقترح أدوات عملية، معمارية وفنية بشكل أساسي، ولكن من دون غمط أيّ أداة ثقافية أُخرى حقّها في صياغة الذاكرة وتأطيرها. ولأبدأ من مركز الهوية الفلسطينية الأول والأهم، القدس، وبشكل خاص حرمها الشريف وقبّة الصخرة والمسجد الأقصى. نحن نعرف الخطر المحدق بالحرم الشريف ومبانيه الإسلامية على يد اليهود المهووسين دينياً والساعين إلى إزالة الوجود الإسلامي من هذا الموقع المركزي وإعادة هيكل سليمان الذي لم يُعرَف له موقع أركيولوجي حتى الآن، على الرغم من كل التنقيبات التي قام بها منقّبون إسرائيليون عديدون مباشرةً تقريباً إثر دخول جيش الاحتلال الإسرائيلي إلى القدس عشية هزيمة 1967، والتي كشفت أربعة قصور أموية تزنّر الحد الجنوبي والغربي للحرم، أُهمل التنقيب فيها بعد اكتشاف هويتها الإسلامية.

ونحن نعرف، أيضاً، المحاولات المتتالية لترميم المسجد والقبّة التي قامت بها سلطات إسلامية وعربية عديدة مثل حكومتي مصر في الخمسينيات والأردن في التسعينيات وغيرها. ولكن غالبية الفلسطينيين والعرب غيرُ قادرين على الوصول إلى هذا الحرم العزيز على قلوبهم والمترسّخ في وجدانهم التاريخي.

ومن نفس المنطلق، هناك مواقع أخرى لعبت أدواراً مصيرية في التاريخ الإسلامي ولا وصول لها اليوم، بل حتى لا معرفة بحالتها المعمارية اليوم. أهمّ هذه المواقع موقعان شهدا موقعتين مفصليتين في سيرورة المنطقة: موقعة حطّين وموقعة عين جالوت. الأولى انتصر فيه صلاح الدين بن أيوب وجيشه على الصليبيّين واستعاد القدسَ والكثير غيرها من المدن الفلسطينية عام 1187. والثانية انتصر فيها السلطان المملوكي المظفّر قطز على المغول وأوقف مدّهم الرهيب عام 1260.

(مؤرّخ معماري سوري وأستاذ كرسي الآغا خان للعمارة الإسلامية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

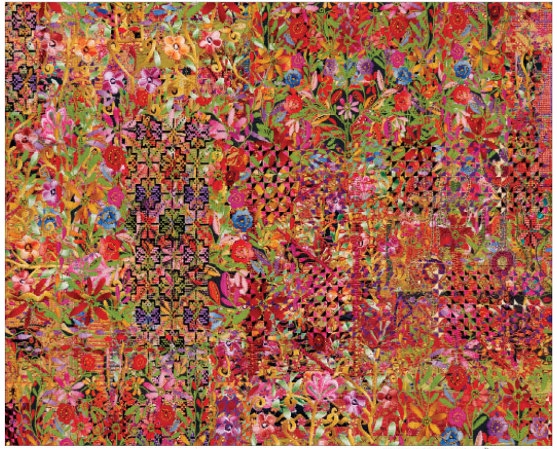
«بلاد الأبد ـ إلى كمال بُلّاطه»، عمل لـ ستيف سابيلا، 2020

تأثير العمارة

قد يكون إطلاق مسابقات معمارية دولية مفيداً في تشجيع المعماريّين على دراسة العمارة التاريخية في فلسطين واستنباط تعابير معمارية جديدة مستوحاة منها. وبما أن بناء هذه النصُب لن يكون ممكناً، فلكي نُعمّق تأثير العمارة المصمَّمة، يمكن إعداد مؤتمرات تناقشها ومعارض جوّالة في العالم تصنع في مخيلة زوّارها صوراً لنصب تستعيد التاريخ وتتشبّث بمواقعه (الصورة: منبر صلاح الدين في القدس المحتلة قبل إحراقه عام 1967).

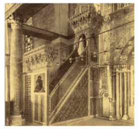

تصويب

شمس خارج المأساة

نجوان درويش

قلتُ
أتشمَّسُ
خارجَ المَأساة
أَضعُ كرسيّاً من القشّ
وأَجلسُ

قلتُ
أتشمّس
في الحُبّ المُدَّخَر
مِنْ سنوات ما قَبل الشَّقاء
كأَنَّ الخليقةَ
بدأتِ الآن

وكأَنَّ أَلغاماً أَرضيةً
وقنابلَ من السَّماء
لم تُمزِّق مِراراً
وجهيَ وذاكرتي

حتّى لم يَبْقَ لي وجهٌ
سوى هذه التّلال
المَنهوبةِ
المُجَرَّفةِ
المُقَطّعةِ
بالجُدران
ولم تَبْقَ لي ذاكرةٌ
سوى هذه السّماء
النَّسّاءةِ
الكَذّابةِ
المَيِّتة

■■■

لا
شمسَ
اليومَ
خارِجَ
المَأساة.

كتاب

عصام سخنيني إعادة كتابة قصة القدس

اختطاف التاريخ كمقدّمة للاحتلال

الحرم القدسي وقبة الصخرة عام 1900 (Getty)

عبر تتبُّعه أحدث الأبحاث والمكتشفات الأثرية، يضيء المؤرّخ الفلسطيني الراحل في كتابه سعي «إسرائيل» إلى تركيب واقع يطابق ماضيها المختلَق

محمود منير

يستند المؤرّخ والباحث الفلسطيني عصام سخنيني (1938 - 2019) في جملة مؤلّفات تفكّك المشروع الصهيوني بوصفه امتداداً للاستعمار الغربي، وكيف اخترع تاريخاً لاهوتياً يطمس التعدُّد الحضاري والثقافي في منطقتنا، بحيث يفصل حركة العبرانيّين عن جميع شعوبها ويُضخّم دورهم أو يخلق بطولات وأساطير تخصّهم ولم تقع أساساً.

سعت «إسرائيل» إلى تركيب واقع يطابق ماضيها المختلَق كخطوة ثانية، وهو ما يضيء عليه كتابه «القدس: تاريخ مختطف وآثار مزورة»، الذي صدرت مؤخَراً طبعته الثالثة عن «دار العائدون للنشر»، عبر تتبَعه أحدث الأبحاث التاريخية والأنثربولوجية والمكتشفات الأثرية ومراجعاتها حتى عام 2009؛ تاريخ نشر الطبعة الأولى، في محاولة لإعادة كتابة تاريخ المدينة المقدَّسة.

يفنّد المؤلّف تحقيب الصهاينة لتاريخ فلسطين القديم الذي وُضع استناداً إلى أساطير توراتية، عبر تقسيمه إلى مراحل: عصر الآباء، ثم عصر الانقطاع حين كان اليهود في مصر، ثم الخروج منها و«فتح» فلسطين والتوطّن فيها، يليه عصر القضاة ومنهم حكم شاول، فقيام المملكة الموحّدة في زمن داود، وبعدها انقسامها إلى مملكتين، مروراً بالنفي البابلي، إلى عهد الهيكل الثاني.

وأُخرس بذلك التاريخ الفلسطيني القديم الذي وقع في قبضة التوراة، ولم يعد يحمل أي مضمون أو معنى، وفق الكتاب الذي يستخدم تعبير «فُرض عليه الصمت والسكوت» للباحث البريطاني كيث وايتلام، في احتكارٍ للماضي ونفي لوجود الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية وتنحصر قيمتهم - بحسب السردية التوراتية - بأنهم كانوا مقدّمة لقيام مملكة داود عام 1004 ق. م، ولا تاريخ لهم قبل التحاقهم بها!

يفنّد الكتاب تقسيم تاريخ فلسطين استنادا إلى أساطير توراتية

عملية أسْر ممنهجة ينبّه إليها صاحب كتاب «فلسطين والفلسطينيون، صيرورة تكوين الاسم والوطن والشعب والهوية» (2003)، ويرى أنها ابتدأت مع تسمية المكان التي لا تشير إلى «وظيفة تعريفية فقط، بل تدخل ضمن معطيات الصراع على فلسطين، لما يحمله الاسم من إيحاء تاريخي ومدلولات قومية ومقدّمات للاستنتاج السياسي، وبكل ما يترتّب على ذلك من لواحق الصراع ووقائعه المادية، وعلى الأخصّ الامتداد الإقليمي للمكان، ورسم تخومه».

ماضي «إسرائيل» المزيّف نُسج مع تدوين «الكتاب» (المقدّس)، كما يرى العديد من الدارسين عبر التاريخ الذين نزعوا عنه صفة القداسة، إذ يعود سخنيني إلى ابن حزم الأندلسي في مؤلَّفه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، ويورد فيه كيف وضع الكاهن عزرا التوراة حين رجع من منفاه البابلي حوالي سنة 458 ق. م، بداية العهد الفارسي، ليتّفق معه الفيلسوف الهولندي سبينوزا بعد أربعة قرون، والذي طردته المحكمة الدينية وجرّدته من يهوديته.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

إضاءة

اللجوء مستمرٌّ إلى الذاكرة

التغريبة الفلسطينية بعد 72 عاماً

رغم أن المسلسل أُنتج قبل عقد ونصف العقد، إلّا أنّ استعادته في مثل هذا اليوم، كفيلةٌ بأن تمنح اللاجئ الفلسطيني لمسة وفاء في زمن مسلسلات التطبيع

سائد نجم

ليس غريباً أن يتذكر كثيرون في فلسطين والعالم العربي مسلسل «التغريبة الفلسطينية»، وأن يصبح ملاذاً للاجئين، في وقتٍ تنحو مسلسلاتٌ سعودية وإماراتية إلى الترويج للاحتلال الإسرائيلي، وتقلّبات سياسية أبقت على أغلب اللاجئين بلا استقرار، حتى يومنا هذا.

ورغم أن المسلسل أُنتج عام 2004 في سورية، إلّا أنَّ استعادته في مثل هذا اليوم، كفيلة بأن تمنح الفلسطيني المُثخن بالأحداث لمسة وفاء، وتأخذه في رحلة حيث بداية القصة، يكون «المشهود فيه هو عين المشاهد، الشاهد نفسه»، بتعبير كاتب المسلسل وليد سيف، في مذكّراته «الشاهد والمشهود» التي أصدرها عام 2016.

يسرد المسلسل حكاية اللجوء الفلسطيني في «النكبة» عام 1948، والتي تصادف ذكراها اليوم الخميس، من خلال التركيز على عائلة صالح الشيخ يونس «أبو أحمد» الذي لعب دورَه الفنان السوري الراحل خالد تاجا، فيبدأ بناء الشخصيات وتركيبها في القصة منطلقاً من ثلاثينيات القرن الماضي، حين كانت تلك العائلة الريفية تعاني من سطوة الإقطاعيين ومُلّاك الأراضي من جهة، ومن الانتداب البريطاني وتضييقاته الرامية لتسهيل المخطط الصهيوني اليهود من جهة أُخرى، فيرصد المسلسل الحالة الاجتماعية في تلك الفترة، ويتتبّع ما لحقها من انقلاب الحال في «النكبة»، وصولاً إلى أحداث «النكسة» وما تبعها.

كانت الفروقات الاجتماعية وسطوة الإقطاعيّين على الفلاحين البسطاء تذوب مع بزوغ الثورة، الثورة وحدها التي أعلت من شأن عائلة أحمد الشيخ يونس البسيطة على المختار أبو عايد والإقطاعي أبو عزمي، فالثورة في أصلها للذي يبذل ويُعطي لا للذي يأخذ. وفي هذا السياق، برز دورُ الابن الأكبر؛ أبو صالح (الممثّل جمال سليمان) بطبيعته الثائرة والقيادية، التي تتفاعل مع الأحداث الاجتماعية والسياسية بشكل أساسي، ويتحوّل بغتةً مع «الثورة الكبرى» (1936) من فلاح فقير مقهور إلى ثائرٍ يعطي تعليماته لوجهاء القرية.

الفجيعة والفقدان المستمر، هو الشعور المكثّف بلا ابتذال بعد أن يتخطى المسلسل انتصافه في حادثة «النكبة» التي شعر فيها الفلسطينيون بالخِذلان والقهر، وهم يسيرون على وقع أصوات المدافع وأخبار مجزرة «دير ياسين» تاركين وراء ظهورهم ممتلكاتهم ومتاعهم على أمل العودة بعد انتهاء الحرب، ويُعبّر عن حجم الكارثة المشهدُ الصامت للوالد أبو أحمد وهو يعلك طعامه باكياً، بلا أرض، وأولاده لا يزال مصيرهم مجهولاً.

وبرع المخرج السوري حاتم علي في تجسيد حالتي الصدمة والضياع في عدد من المشاهد، منها: اختفاء حسن الذي قرّر وهو عائد من الجبهة إلى منزل العائلة لطمأنتهم أن ينخرط في جبهة أخرى بعد تقدّم القوّات الصهيونية، وغُيّب عن المشهد للتركيز على العائلة التي خرجت من منزلها مفجوعة تحت وقع القصف، وليظلّ المشاهد عالقاً مع عناصر المسلسل يتساءل: ماذا حل به؟ وتعلم العائلة بخبر استشهاده من أحد رفاقه الذي أوصلوا بندقيته بعد مدّة طويلة من انتظار عودته، فتبكي الأمُّ وتمسح دموعها: «بس لو ودّعته»، ونفس تقنية التغييب عن المشهد طُبّقت في أكثر من حدث بالمسلسل.

كمُهجّرين بالإكراه قبل ولادتنا هذه فرصة لإعادة الوعي

ويأتي الوصف الصوتي لحال اللاجئ في المخيّم، بصوت علي - الشقيق الأصغر المتعلّم - الذي أدّى دوره تيّم حسن: «منذ اليوم سيكون على اللاجئ أن يعيش هذه المفارقات الحادّة المؤلمة، موزّعة دائماً بين حاجاته المادية المباشرة، وبين مطلبه الوطني العام، وما كان لهذين المطلبين الشرعيّين، أن ينسجما في نفسه إلّا نادراً، سيطالب بتحسين أوضاعه، ومع ذلك سيواجه كلّ خطةٍ في هذه السبيل بالشك، خشية أن يكون الثمن ذاكرته وقضيته ووطنه، سيكون عليه أن يشك في نيّات من يعرضون عليه شيئاً مما يريد، وسيبدو لغزاً غريباً ومحيّراً ومزعجاً لأولئك الذين لم يُعنَوا أنفسهم بفهم الدوافع العميقة والمسوغات الواقعية لكل تلك المفارقات والمشاعر المتطاحنة».

(صحافي من فلسطين)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

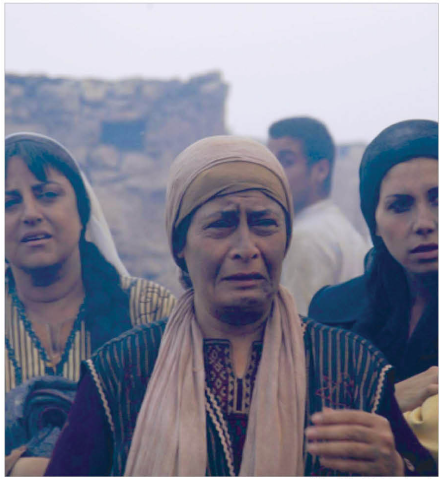
مشهد من مسلسل «التغريبة الفلسطينية»

شذرات

يزيد إحياء ذكرى النكبة أهمية في عصر تخلى فيه النظام الرسمي العربي في غالبيته عن فكرة الصراع مع الصهيونية و«إسرائيل» (...) فقد وضعت مبادرة السلام العربية كسياسة رسمية سقفاً جديداً لا يبدأ بالنكبة، بل باحتلال الأراضي العربية في 1967، وبالتالي يُماسس الهزيمة.

عزمي بشارة ـ من مقال «في ذكرى نكبة فلسطين» في مجلة «المستقبل العربي»، 2009

قبل سقوط عكا احتل عدد صغير من المسلحين، ومن بينهم سمعان الغفري، قلعة البوليس البريطاني، واستمروا في مقاومة اليهود لأيام وكبدوهم خسائر كبيرة، ولم يتوقفوا عن القتال إلا بعد أن نفدت ذخيرتهم، وقتل بعضهم و تمكن بعضهم الآخر من التسلل إلى داخل السور ثم الهرب إلى لبنان عن طريق البحر.

هشام شرابي ـ «الجمر والرماد»

كانت دير ياسين البداية، ولكنها كانت أيضا بداية النهاية. لم يكن هروب الفلسطينيين من ديارهم بسبب وعود وردية تلقوها من الجيوش العربية «الغازية»، ولكن لعلمهم أنهم يواجهون جيشا موتورا حدّ العمى، لا يعرف الرحمة، جيشا لا يوقفه شيء حتى يأخذ مآربه. ثم سريعا ما انتشرت إشاعات الاغتصاب والمذابح بدم بارد.

سلمى الخضراء الجيوسي ـ «دير ياسين قبل أُفول البراءة وبعدها»

أتيح لـ«إسرائيل» إقناع العرب والقيادة الفلسطينية المنهكة بأن التكافؤ معها أمرٌ غير وارد على الإطلاق، وبأنه لا سلام إلّا بالشروط التي تُمليها. وقد ساعدت حالة التردّي العربية على ترويج هذه الأكذوبة، حينما امتصّت الحروب الفاشلة، والشعارات الفارغة، والجماهير غير المعبّأة، وانعدام الكفاءة، وانتشار الفساد، حيوية مجتمعاتنا.

إدوارد سعيد ـ «غزّة أريحا: سلام أمريكي»